

إنما الكأس للأسد وليس للأشد

إذا كان الشيطان الرجيم أشد فرحاً بالطلاق.. فلماذا نسعده بهذا الطلاق؟!

إن تشريعات الإسلام.. حتى بعد وقوعه تجعل من الزواج الأول: القاعدة.. والطلاق استثناء..

فالمطلقة.. تعتد في بيت الزوجية.. على مرأى ومسمع ممن يطلقها ثم.. لا بأس أن تتزين له..

والعود الحميد إليه سهل ميسور.. وبكلمة واحدة.. ترجع إليه.. كأن شيئاً لم يكن!

وهكذا.. يحاول الإسلام أن يرأب الصدع.. ويصلح ما أفسد العطار.. بتهيئة الجو لهذا العود الحميد.. والذي نبّل به أرحامنا: نندي به على ما أيسسته الأيام.. مع زوجة عرفتنا.. وعرفناها.

...

ورحم الله «محمد بن سيرين»

لقد ولد له ثلاثون ولداً.. ومن زوجة واحدة، وكان سعيداً بهذه صاحبة.. والتي كان الولد تقوية للعلاقة الزوجية والتي تنامت مع الأيام بهذا العدد الوفير من البنين والبنات.

لقد عنى الإسلام بكل علاقة إنسانية.. وهو على علاقة الزوجية أشد

حرصاً .. لأنها الأساس ..

ومن التوجيهات العملية هنا :

أفضل الدراهم ما أنفقته على نفسك .. ثم على أهلِكَ .

ونستطيع في ضوء هذا التوجيه أن نهز ضمير الزوج عاتين :

لمن تكون ابتمسامتك؟ .. ودعابتك؟ .. وأطيب وقتك؟ للزوجة
طبعاً ..

•••

قد تسول لك نفسك أنها غير جديرة بحبك؟

لماذا؟ (لعيب في الخلق أو الخلق مما لا يعد ذنباً لهن لأن أمره ليس في
أيديهن .

فاصبر .. ولا تتعجل في اتخاذ قرار الطلاق .. فقد يكون في بقاء
الزوجة خير .. بل خير كثير .. وأعلى الخير : [الأولاد النجباء] .

فرب زوجة يملكها زوجها . ويكرهها .. ثم يجيئه منها ما تقر به عينه
من الأولاد النجباء .. فيعلو قدرها عندها بذلك .

نعم الإله على العباد كثيرة .. وأجلهن نجابة الأولاد :

ومنها : أن يصلح حالها بصبره .. وحسن معاشرته .. فتكون أعظم
أسباب هناءته .. بانتظام معيشته . وحسن خدمته .. لا سيما إذا أصيب
بالأمراض والفقر والعوز .

فكثيراً ما يكره الرجل إمرأته لبطره بصحته وغناه .. بإعتقاده أنه قادر

على أن على أن يتمتع بخير منها وأجمل].

يفعل هذا.. ناسياً أن الصواب الأسد لا في الأشدا وأن للأمور
بغتنا.. وعليه أن يكون منها على حذر.

[ومن الأدلة على أن الإنسان مصرف مغلوب.. ومدبر أن يتبدل رأيه
في بعض الخطوب. ويعمى عليه الصواب المطلق].

...

[إن الإسلام ينظر إلى البيت بوصفه سكناً وأمناً وسلاماً.. وينظر إلى
العلاقة بين الزوجين بوصفها مودة ورحمة وأنساً.. ويقيم هذه الأخيرة على
الاختيار المطلق.. كي تقوم على التجاوب والتعاطف والتحاب.. هو
الإسلام ذاته الذي يقول للأزواج «فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً
ويجعل الله فيه خيراً كثيراً».. كي يستأنى بعقدة الزوجية.. فلا تقصم لأول
نزوة.

وكي يحفظ لهذه المؤسسة الإنسانية الكبرى جديتها.. فلا يجعلها
عرضة لنزوة العاطفة المتقلبة.. وحماسة الميل الطائر هنا وهناك.
.. إن في الحياة من المروءة والنبيل والتجمل والاحتمال ما هو أكبر
وأعظم من هذا الذي يتشدقون به في تصور هابط ذليل]

...

وفي مجالس الصلح.. كنت أنصح الزوج الفائز الثائر:

[فرايت أنه لا يقبل النصيحة.. وأن نفسي الحارة لا تؤثر في حديده
البارد]!

وكنـت أقول ما قاله الحكماء:

[بلغ ما عليك فإن لم يقبلوا.. فما عليك].^٥

[قل كل ما تعرفه من النصيحة والموعظة.. ولو عرفت أنهم لا يسمعون لك..

فقد ترى غداً أن العنيد قد وقع برجليه في القيد ثم يضرب كفّاً بكف قائلاً:

وا أسفاه:.. لم أسمع حديث العالم].

•••

ومن حديث العالم قوله:

[يجب على الرجل الذي يكره زوجته أن يتذكر أنه لا يخلو من عيب تصبر إمرأته عليه في الحال غير ما وطنت نفسها عليه في الاستقبال].

وكلا الزوجين محتاج إلى مودة الآخر..

فإن نفذ رصيد المودة.. تقدمت الرحمة تنشر ظلها.. فإذا الصبر ضياء كاشف.. واصل بالأسرة كلها إلى بر الأمان..

ليس في ذلك البيت فقط وإنما في كل شئ يبدو لنا مكروهاً قد يعقبه خير كثير ولذلك قال عز وجل..

[وعسى أن تكرهوا شيئاً ولم يقل وعسى أن تكرهوا زوجة.

•••

ويبقى أن يدرك الزوج.. الأسيان الغضبان.. أن الشمـل اليوم

جميع . . وأن الزوجة . . والذرية . . بين يديك الآن . فإن تفرق هذا الشمل
الجميع . . بالقرار الوجيع . . وإذا كانت رجولتك تسول لك الانتقام . . فتذكر
ما قاله البصراء محذرين:

[إن الشجرة التي تنفض ثمارها في فصل الربيع لا جرم أن تبقى جرداء
في فصل الشتاء].



من متعة المادة ... إلى نعيم المودة

كان على «البركان» أن يدرك: أن الأعشاب من حوله يمكن أن يقضي عليها بزفيره فقط ..

وإذن .. فلا داعي للحمم اللاهبة الهائلة؟! لا داعي لأن تكون طويل اللسان .. قاتل الكلمات .. مادام في إمكانك أن تنبه الغافل الذاهل .. بالكلمة الحانية!

•••

قلت للزوجة التي جاءت من أقصى المدينة تسعى باكية .. تعرض مشكلتها .

لقد رأت زوجها .. وبعيني رأسها .. رآته يترك اللحم الطيب .. ثم يؤثر عليه ذلك اللحم النقي؟!!

لقد انتصر القبح على الجمال .. وصار الأمر فوق الاحتمال، وقد أفتاها الفاقهون .. أن تعتزله مع أولادها .. فلا عيش معه من بعد فعلته التي فعل!!

•••

وقلت لها:

إذا كان زوجك ينطح من عمره «الخمسين» .. وإذا لم يصدر منه من قبل ما يشين .. ثم إذا كانت رفيقته فرضت عليه فرضاً ولم يسع هو إليها ..

إذا كان «الامر كذلك: فهو غير محترف..»

لقد فرضت عليه المعركة فرضاً.. وكان ذلك.. ذنبه الأول.. وإذا كان الخالق سبحانه وتعالى لا يعذب مخلوقه بالذنب الأول.. فأحرى بالمخلوق أن يعفو..

إن الطلاق لن يكون هو الحل.. ما دامت هناك حلول أخرى.. ومن هذه الحلول:

أنه إذا تسرب الود.. فقد بقيت الرحمة التي يجبر الله بها الكسر فارحميه.. فلعلك بالرحمة أن تنقذيه:

[إن المعروف. والجميل. والحسن. يجب أن تسود جو هذه الحياة سواء اتصلت حبالها. أو انفصمت عراها.

ولا يجوز أن تكون نية الإعنات والإيذاء عنصراً من عناصرها، ولا يحقق هذا المستوى الرفيع من السماحة في حال الانفصال.. إلا عنصر أعلى من ملابسات الحياة الأرضية.. عنصر يرفع النفوس عن الإحن والضغن.. ويوسع من آفاق الحياة ويمدها وراء الحاضر الواقع الصغير هو :
عنصر الإيمان بالله واليوم الآخر].

•••

فلنطو هذه الصفحة من عمرنا.. مع ضرورة الحذر والمتابعة على حد قول الشاعر:

ينام بإحدى مقتليه.. ويتقى

بأخرى المنايا: فهو يقظان نائم

ولقد تحققت النبوءة .. وصحا النائم .. صحا الزوج العائد العائد بالله تعالى مما حدث .. مدرّكًا إلى أي حد كان الفارق هائلًا بين: متعة المادة .. ونعيم المودة!

...

ولم يكن الزوج هو الفائز وحده بنعيم المودة .. ولكن الزوجة والأولاد ... كذلك ... والدرس الأكبر هنا هو:

أن في استطاعة الزوجة أن تتجاوز لحظات الخطر بمزيد من الاصطبار .. يطلع به النهار ..

ذلك بأن الحياة الزوجية لا يمكن أن تسير على وتيرة واحدة .. والمهم ألا نستكين لمفاجأتها .. وأن نجعل من الحلم ركوبًا إلى حياة جديدة سعيدة .

وإذا كان هناك من يستسلم لليأس: يقف على أنقاض عمره: ينصت في الليل إلى دقات قلبه .. ويسترق السمع إلى رثيئه .. يقيس المسافة بين غرفة نومه .. وقبره .. إذا كان هناك من ينظر إلى بيته .. لا من ثقب الباب .. وإنما من قلب مثقوب .

إذا كان هناك من يفعل ذلك .. فإنهم مدعون إلى عود حميد إلى تاريخنا المجيد .. ليروا من مواقفه شاهد صدق على ما نقول:

لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يؤدبون نساءهم .. ويضربونهن:

هذا الزبير بن العوام - حواري رسول الله ﷺ وابن عمته - وثب على امرأته أسماء بنت أبي بكر وهي أفضل نساء زمانها . فضربها في شيء عتب عليها فيه ضربًا مبرحًا .. حتى كسر يدها .

وهذا كعب بن مالك الأنصاري . . عتب على امرأته وكانت من المهاجرات . . فضربها . . حتى حال بنوها بينه وبينها . . فقال :
فلولا بنوها حولها لخبطتها .

قال الراوي :

فسرّى عن موسى الغضب ! وطابت نفسه ودعا بالطعام . فأكلنا . وكأن شيئاً لم يكن !

•••

وقد كان هناك حكماء رحماء . . يدركون دقة العلاقة الزوجية . .
وقدسيّتها . . فوصلوها . . بعدما قطعوها .

ذكروا أن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه كانت عنده عائلة بنت زيد بن عمرو بن نفيل . . فأحبها حباً شديداً . .

ويبدو أن الصديق خاف عليه من فتنة الحب الذي يوشك أن يكون هياماً . . فأمره بتطليقها .

ولأنه يريد الإصلاح و لا يريد أن يتشقى . . فقد أمره أن يطلقها تطليقة واحدة . . ففعل . . ثم ندم عبد الرحمن ندماً عبر عنه شعراً فقال :

فلم أر مثلى طلق اليوم مثلها

ولا مثلها في غير جرم تطلق

لها خلق سهل وحسن ومنصب

وخلق سوى ما يعاب ومنطق

أعانك: كل يوم وليلة

إليك بما تخفى القلوب معلق

أعانتك: ما أنساك.. ماذر شارق

وما لاح نجم في السماء محلق

فلما سمع أبو بكر ذلك رق له وأمره بمراجعتها!!



حتى لا تذهب أمانينا.. وبأيدينا

يقول الحق سبحانه وتعالى:
﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (١). [النور: ١٢].

...

تمهيد:

كان للقرآن حضور عميق في وجدان المسلم: يتلقى توجيهًا بالتسليم:
فلا يقول إلا حقًا.. ولا يصنع إلا عدلاً.. فإذا كان المسلم زوجًا.. كان
على غاية ما يكون الالتزام بما يشير إليه القرآن من أحكام:

وقد سمع واحد عن زوجته شرًا.. فاستحضر هذه الآية الكريمة في
وعيه.. وعلى ضوئها رد فرية من أبلغه قائلًا:

أنا مؤمن.. ولأنني مؤمن.. لا أفعل هذا الشر وزوجتي كذلك:
مؤمنة.. ولذلك فهي بحكم إيمانها لا يصدر عنها ذلك الشر.. وإذن فكل
ما يبلغني عنها.. كذب!

وانتهت المؤامرة بتصدي هذا الزوج الواعي لمن أراد به وبأهله شرًا!!

...

لقد كان قلب الزوج هنا مثل قارورة الزجاج ترتطم به الشائعات ثم
ترتد حسيـرة دون أن تؤثر فيه . .

ولم يشأ أن يكون قلبه مثل «الاسفنجة» التي تمتص ما يرد إليها . . ثم
تختزنه!!

إن شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا
يريدون بذلك حل عقدة النكاح بما يوسوسون به من همزات وشائعات . .

ونحن محتاجون إلى زوج من هذا الطراز . . الحافظين للود . .
الرافضين للوشاية فارين بهذه الثقة من عقبى سوء الظن . . وهي استحالة أن
تعود الزجاجة بعد الكسر إلى سابق عهدها:
ولست براجع ما فات مني

بلهف . رلا بليت . ولا لو أني

...

إن هذا الميثاق الغليظ أقوى من أن تنحل عقده بكلمة طائشة عابثة
ماكـرة . .

ذلك بأن عقدة النكاح ولدت . . لتبقى . . ولا يستطيع - حتى الموت -
أن يحلها .

...

وإذا كان الزوجان مكلفين . . بالتصدي لكل محاولة تستهدف سلامة
بيتهما . . وذات بينهما . . فلا ينبغي أن يصير ذلك «شماعة» نعلق عليها كل
أخطائنا . . اللاتي صنعناها بأيدينا . . ذلك بأن المشكلات قد تهب أعاصيرها

من داخل البيت نفسه.. وباستسلام الزوجين لموجة الترف.. زهداً في حياة البساطة، وما يترنّب على ذلك من آثار تنعكس على كل ما في البيت.. ومن فيه رجوماً وغيوماً..

بمعنى أننا - أحياناً على الأقل - لا يجمل بنا أن نبحث عن أسباب الطلاق خارج ذواتنا.. فقد نكون نحن الذين مهدنا لها السبيل.. حتى لم يعد للنجاة منها سبيل!



وهذه واحدة من تجارب الحياة.. نقدمها تبصرة وذكرى:
يحكي واحد من الأزواج تجربته.. فيقول:

بعد زواجي في الخامسة والعشرين من عمري.. عشت وزوجتي أجمل سنوات عمري كانت أحلامنا - زوجتي وأنا - صغيرة، لا تزيد عن شراء جهاز تليفزيون. ثلاجة. الجلوس في العصري في حديقة عامة ومعنا قليل من الغذاء، ذات مرة حلمنا أن نمتلك سيارة صغيرة مستعملة، فضحكنا حتى الثمالة من هذا الحلم المستحيل، وخلال عشر سنوات زواج سعيد، رزقنا بثلاثة أولاد، كانوا قرة عيني، ومصدر سعادتي. وجاءني عقد عمل في إحدى الدول العربية، وأسعدني هذا العقد، وقلت المقولة المصرية الخالدة: هذا رزق أولادي!!

كانت شروط العقد أن أسافر وحدي دون أسرتي. وأحصل على إجازة سنوية لا تزيد على ثلاثة أسابيع في العام، وفكرت أن أقضي عدة سنوات قليلة أعود بعدها إلى أسرتي ومعني سيارة وقليل أو كثير من المال في أحد البنوك. وتركت زوجتي الجميلة وأجمل أطفال في الدنيا.

معذرة.. لقد جرفني معه تيار الطمع، فبدلاً من تلك السنوات القليلة، قضيت بقية عمري أسبح في هذا التيار المدمر، وتركني العمل أو تركته وعدت للإقامة الدائمة، كهل في الستين، أملك مالا وفيراً، وأحتاج لرعاية كثيرة. فماذا حدث؟

وجدت نفسي غريباً في بيتي، لأولادي عالمهم الخاص الذي لا يجوز لي أن أقتحمه. لزوجتي صديقات وأسلوب جديد في الحياة لا مكان لي فيه.

وجدت - يا سيدي - الصمت هو حوارنا.

وجدت في عيون أسرتي السعادة عندما أقضي بضعة أيام في الإسكندرية وحدي.

أرى الغضب في عيون أسرتي إذا جاء لي صديق، وأحسست بالوحدة، والغربة، في بيتي وداخل أسرتي.

ومع مرور الأيام، ومع شدة ضعف صحتي، لم يعد لي الحق أن أرد على تليفون، أن أدعو صديقاً لبيتي، أن أحاور أفراد أسرتي أو أعرف عنهم شيئاً. وأعيش بقية أيامي - في هذه الوحدة القاتلة والغربة الكثيرة وحدي - أجتر ذكريات عشر سنوات، قضيتها في سعادة غامرة أنا وزوجتي وأطفالي الثلاثة، تحت الأشجار وفي الحدائق العامة، ومعنا قليل من الغذاء، وكثير من الحب، وأحلام صغيرة!!!

أما بعد:

فقد كان الحب الكبير في بيت الفلاحة البسيطة.. التي خلا بيتها من كل جهاز حديث.. ولكنه حافل بأطيب الحديث..

لقد كانت هذه «الفلاحة» عاملة

تعمل مع زوجها . . وهذا شرفها

وفي أرضها . . وهذا عزها

منتسبة إلى زوجها . . وهذا هو انتماؤها ووفاءها . ثم هو العمل

«الواجب» وليس هو العمل «الحق»

...

إنها عنقود من القيم تسعد به البيوت . . والحب فيها لا يموت!



إصلاح ذات البين وسعادة الزوجين

•••

خمس وعشرون ألف رسالة . . تصل يومياً إلى ممثلة الإغراء ومع ذلك تعلن: أنها تحس بالوحدة القاتلة:

وتصوروا هذا العدد الضخم الذي يملأ حياتها . . لا يطرد الإحساس بالاغتراب وحتى مع وفرة الأحباب!

ذلك بأن المعجبين هنا فارغون . . يعيشون مثلها خواء روحياً . . أرادوا أن يملأوه بالتملق . . مع أنه لا يمتلئ إلا باليقين . . ولا يقين هناك . . وفاقد الشيء لا يعطيه . .

إنها مدرسة الفتنة بالحياة الدنيا تقيم حساباتها على أساس خاطئ هو: أنه لا حياة بعد هذه الحياة . . فذاقوا وبال أمرهم في الدنيا قبل أن يذوقوه هناك . .

•••

إذن . . فوفرة النعيم . . لم تجلب على أهلها إلا العذاب القيم . . بينما كانت المرأة الراضية بالقناعة . . أكبر سعادة . . وأقدر على اتخاذ القرار السليم . . لتصبح في رضاها، وفي سكنها بيتاً خالياً من حبة القمح . . وحبة الدواء . . لتصبح أغنى بهذا الرضا وهذا الاستعلاء حتى على الضرورات . . .

ثم لتكون زوجة صالحة مصلحة . . حتى في ظل رجل واحد هو

زوجها . . الذي لا يملك نقيراً ولا قطميراً .

شكّت «أم الدرداء» إلى زوجها «أبي الدرداء» شكت إليه الحاجة إلى الدقيق يوماً . . لم تكن من دأبها أن تشكو حتى من فراغ بيتها من ضرورياته المعيشية . . ولكنها تجأ اليوم بالشكوى بعد أن اختفى من البيت رغيف العيش . . .

ويجبها أبو الدرداء قائلاً:

اصبري . . فإن أماننا عقبة كثوداً . . لا يجوزها إلا أخف الناس حملاً من متاع الدنيا!!

...

وتنحسر الرغبة من قلب الزوجة الراضية . . ويكفيها أن يبقى «الرجل» أن يبقى «الزوج» . . ففي وجوده . . لا يكون هناك في الدنيا ما تبكي عليه!

...

إن حسابات الزوجين هنا قائمة على أساس سليم وهو: أن هناك داراً هي الحيوان . . فيجب أن نستعد لأهوالها . . بالتخفف من أثقال الدنيا .

ومهما فاتنا من مناعم هذه الحياة الدنيا . . فخطبه هيّن ما دامت هناك مودة تربط على القلبين . فالمهم هو إصلاح ذات البين .

إن ملائكة السماء لتمنى أحياناً أن تنزل من سماواتها العلا . . لتكون من أهل الأرض . . لعظم ما تراه من ثواب الأعمال فيها . . وفي مقدمتها . . إصلاح ذات البين!!

وأجمل بهذا الإصلاح إذا كان بين زوجين .

وإذا كانت الأشياء تتميز بأضدادها.. فإننا نقابل هذه الصورة المشرقة.. بصورة أخرى مظلمة.. تظهر بكدرتها حسن سابقتها.. لتعلم الزوجات إلى أي حد كان الوفاق.. خير ما نطلب من أرازق.. وفي غيابه.. فإن الحياة لا تطاق!

سألت الزوجة زوجها نقوداً.. فقال لها غاضباً:

نقود.. نقود؟!

النقود هي كل شئ تطلينه.. ليتني أستطيع أن أعطيك عقلاً بدلاً منها!

فقالت آسفة كاسفة البال:

إنني أطلب ما أعتقد أنه موجود عندك!!
ثم قامت الدنيا.. ولم تقعد.. إلا بالطلاق!!

•••

إن الزوجة هنا تطلب ما لا تسمح به ميزانية البيت.. وهي تعلم ذلك فأهل مكة أدرى بشعابها..

فكان لابد أن يصفعها الزوج بهذا الرد القاسي.. المنتهى بتبادل تهمة هما منها براء.. ثم يكون الفراق.. بسبب ما أحدث الاتهام من «جروح».. لا.. بل من «جراح» ذلك بأن الجروح متعددة.. ومتقطعة.. أما الجراح.. فهي ممتدة.. بسبب هذه «الألف» ذات الصدى الصوتي المديد! إن هناك في شخصية الزوج مناطق محظورة: ممنوع الإقتراب منها.. أو تصويرها.. كـ بعض المناطق العسكرية.. ولكن بعض الأزواج

يقتحمونها.. فيقع المحذور.. وقد يحاول الاعتذار.. ولكنه الاعتراف بعد فوات الأوان:

إنه لا يرد ما فات ولا يحيي الموات!

•••

وإذا كان من مقررات الشريعة أن «الجعل»^(١) في حجره كاد أن يعذب بذنب ابن آدم.. فكيف إذا كان الذنب في حق الرفيق.. حق الزوج الوثيق. المعين على وعشاء الطريق؟

إنه أثقل حملاً.. وأعظم مسؤولية.

•••

لقد جاءت الزوجة الوفية الأبية تشكو إلى الرسول ﷺ بثها وحزنها قائلة:

ولكنني أكره الكفر في الإسلام!

لقد اعتبرت مخالفة زوجها كفراً.. وهكذا وفي أخرج لحظات حياتها لا تنسى أن تكون وفية أبية.. تعلم بنات زوجها فن الوفاء في زمان ضاع فيه الوفاء

•••

ولقد كانت بهذا الوفاء وهذا الولاء أسعد من أختها الحضرية. بهذا القلب الواسع الذي يُعلم الزوجة أن توسع من قلبها لتحترم رفيقها. احترامه إن فاتها حبه.. ثم ويبيدها تهدد طفلها قائلة:

أحبك.. والرحمن... حب قريش لعثمان!

(١) الجعل: الخرباء.

أزواج تحت مستوى النظر

كان الموظف الكبير يتأمل وجه الموظف الأكبر فيقرأ في ملامحه ماذا يريد . . فكان ذلك الرجل الذكي الأملعي . . والذي عناه الشاعر بقوله :

الأملعي : الذي يظن بك الظن . . كأن قد رأى وقد سمعا !

•••

وبهذه الأملعية . . تجاوز كثيراً من لحظات الصدام . . وعاش معه في وئام . .

•••

قالت نفسي :

ولماذا لا يكون الزوج . . ولا تكون الزوجة كذلك أن يتحرى كلاهما رغبة صاحبة . . ليسارع في رضاه . . لماذا لا نحاول الاحتفاظ بأعصابنا . . حتى لا تحترق في أتون الخلافات الزوجية ؟ !

أليست أعصابنا أغلى ثمناً . . من كل ما نتقاتل عليه من أمور البيت ؟ !

•••

إذا كان ولا بد من خلاف . . فليكن الخلاف علي قضية تستأهل هذا الخلاف . . أما العبث بهذا الميثاق الغليظ . . ومحاولة نقضه من بعد قوة فذلك تلاعب بالعروة الوثقى . . التي اجتمعنا عليها . . وبكلمة الله . . وعهد الله سبحانه :

كانت أم الحجاج زوجة للمغيرة بن شعبة رضي الله عنه فرآها يوماً «تخلل»
أسنانها بكرة.. فقال لها: أنت طالق والله!

لئن كانت هذا من غذاء يومك.. لقد شرهت.. وإن كان من عشاء
أمسك.. لقد أنتنت!
فقالت:

لا يبعد الله غيرك!.. والله ما هو إلا من السواك!
وانتهت المعركة بالطلاق!

...

لقد كان على الزوجة هنا أن تعي نصيحة الأم لابنتها:
لا يشم منك إلا أطيب ريح..
ولا تقع عينه منك على قبيح!
لكنها لم تع النصيحة.. فحدث المحذور.. بعد ما أرت زوجها من
نفسها ما كرهه!
ويتحمل الزوج هنا مع زوجته عبء هذه النهاية الأسيفة، وكان من
الممكن أن يتجاوزها بحكمته.. وحنكته..

...

ولقد تكون الزوجة شابة.. بينما يكون بعلمها شيخاً.. يتخذ من العصا
رجلاً ثالثاً؟!
ولكنها قبلته ابتداء.. وبلا إكراه..

إلا أنها رأَت فتية أهجن فيها الشجن فقالت على مسمع منه مالي
وللشيوخ . . الناهضين كالفروخ!

فقال:

ثكلتك أمك:

تجوع الحرة ولا تأكل بثديها . .

أما وأبيك: لرب غارة شهدتها . وخيل وزعتها . وسبية أردفتها .
وخمرة شربتها:

إلحقي بأهلك . . فأنت طالق!

ويبدو أن قرار الطلاق كان حازماً لا رجعة فيه . . وذلك ما يشير إليه
قوله مؤكداً هذا العز مدافعاً عن شيخوخته:

تهزأت أن رأَني لابساً كبيراً

وغاية الناس بين الموت والكبر

فإن يكن قد علا رأس وغيره

صبر الزمان وتغيير من الشعر

فقد أروح للذات الفتى جذلاً

وقد أصير —ها عيناً من البقر

عني إليك . . فإنني لا يوافقني

عور الكلام ولا شرب على الكدر

وهكذا.. . تنفصم العروة الوثقى أمام هجمة الشهوة العارمة، وكان الظن أن تفي الزوجة الشابة بعهدتها.. . لكنها لم تفعل فكان ما كان.

...

بل إن الميثاق الغليظ قد يخف في تقدير ناس ينقضونه هكذا وبلا سبب:

بينما كان ثلاثة رفاق في موطن يقال له.. . «بطيائا» من أمصار «دجلة».

فقال أحدهم:

نلنا لذيذ العيش في «بطيائا».

فقال الثاني:

لما حشنا أقداحاً ثلاثاً

فقال الأخير:

وامرأتي طالق ثلاثاً!

...

وبهذه البساطة.. . يتلاعب المتلاعبون بالميثاق.. . الغليظ وقد يندمون.. . ولكن بعد فوات الأوان!

ولئن صح ذلك.. . أيام الجاهلية الأولى.. . فإن الجاهلي منطقي مع نفسه.. . أما المسلم.. . فقد كان الظن به أنه يرتفع به إسلامه فوق هذه النزوة الطارئة.

أجل.. . في الجاهلية [كانت المرأة ألعوبة في يد الرجل: يضارها

بالطلاق ما شاء أن يضارها. فكان ذلك مما أصلحه الإسلام من أمور الاجتماع].

الإسلام الذي غالى بعقد النكاح .. وبقيمة المرأة .. التي وإن وصفها بأنها «تكفر العشير» فإن ذلك لا يعني نقصها .. ولا رفضها ..

وإنما هو التحذير من سوء المصير .. لو أنها لم تحسن تبعلها لرجلها ..

إن الإسلام لا ينفذ يديه منها .. كما وأنه لا يرفض بقاءها مهما بدر منها .. ألا وإن غياب الزوجة المشاكسة لمصيبة كبرى .. فكيف يكون لو كانت طيبة خاشعة؟!

